دور الهوية في النضال الوطني عند أميلكار كابرال (دراسة تحليلية)

* د. احميد حمد بوصبع

المستخلص: تتناول الورقة دور الهوية في النضال الوطني عند أميلكار كابرال (١٩٢٤-١٩٧٣)، انه مفكراً سياسياً بارزاً أسهم بأفكاره الثورية والفلسفية المميزة في بناء إيديولوجية مناهضة للاستعمار والامبريالية، كما رسم مساراً فكرياً جديداً موسعاً لفلسفة ماركس ولينين لتلائم الواقع الإفريقي. طرح كابرال فكرته عن الهوية التي تتمثل عنده في إشكالية (الأنا والأخر) حيث تمثل الأنا جماهير المجتمع الغيني الخاضع بينما يمثل الآخر المستعمر البرتغالي.

أولاً – المقدمة :

ولد أميلكار كابرال في قرية (بافاتا) الصغيرة في غينيا بيساو سنة 1924م، حيث تلقى فيها تعليمه الأساسي، ثم أنتقل إلى مدينة (منديلو) ليتلقى تعليمه الثانوي بالمدرسة الإيطالية، وتمكن بعد ذلك من استكمال مراحل تعليمه الجامعي بالبرتغال الدولة المستعمرة لبلده، وبالتحديد في كلية الزراعة بجامعة لشبونا أحد أهم الجامعات البرتغالية وأعرقها، وهناك كانت المرحلة المفصلية في حياته حيث أستطاع التعرف على المستعمر عن قرب، فعندما كان كابرال يتجول في شوارع لشبونا وأزقتها، رأى كيف يعيش المواطن البرتغالي وقارنه بتلك المعيشة التي يعيشها أبناء وطنه، الذين يذوقون مرارة الفقر، والقمع، والقهر، من جراء هيمنة المستعمر الأجنبي على مجتمعهم، ولتلك اللقاءات والنقاشات، التي كانت تدور مع رفاقه وزملائه الطلبة عامة والأفارقة خاصة، تمكن كابرال من الاطلاع على تجارب النضال الوطني في أفريقيا وبلدان العالم الاخرى، ومن خلالها تعرف كابرال على الأيديولوجية الاشتراكية وأهم منظريها (ماركس ولينين)، حيث أستطاع قراءة أطروحاتهم وأفكارهم الفلسفية والثورية والتي رأى فيها أنجع طريق لتخليص بلده من الهيمنة الاستعمارية الأجنبية. (مارتينيز، alhamish.com.)

تأثر كابرال بالكاتب والأديب الكاريبي ايمي سيزار (1913م – 2008م)، مؤلف كتاب (خطاب حول الاستعمار) (1950م)، الذي أسهم في فضح الطبيعة الوحشية وتعريتها تلك الطبيعة غير الإنسانية للهيمنة الاستعمارية الأجنبية، كما تأثر بالكاتب والأديب الكاريبي الآخر سي . ل . ر جيمس، مؤلف كتاب (اليعاقبة السود) (1938م)، وبين فيه الأهمية التاريخية للثورة الهاييتية، حيث كان لهما دور بارز في دفع كابرال إلى تبني الفكر الماركسي، كما هو حال كثير من السياسيين، والمثقفين الأفارقة في المجتمعات الخاضعة للمستعمر في فترة النضال الوطني، ممن كانوا متعاطفين مع الماركسية.

* كلية الاداب – جامعة سبها

عند عودته إلى وطنه في عام 1951 م عمل مهندساً زراعياً في إحدى مؤسسات المستعمر ليعيش تلك المعاناة الكبيرة التي يعانيها شعبه، ومن هنا هدف كابرال إلى البحث عن إطارٍ سياسيٍ يُمارس من خلاله نضاله الوطني، ففي عام 1956 م أسس الحزب الأفريقي لاستقلال غينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر (PAIGC)، وربط كابرال بعلاقات سياسية مع عدد من الدول الأفريقية، يذكر منها على سبيل المثال لا الحصر (ليبيا والجزائر وغانا وغينيا). أراد كابرال أن يجعل من نضال حزبه الأفريقي ضد المستعمر البرتغالي، في سياق النضال الثوري ضد الامبريالية والرأسمالية، لأجل العمل على تحقيق الاشتراكية (ديمبل، alhewar.org)

، ولذلك نجده قد ارتبط – إضافة إلى علاقاته مع الدول العربية والأفريقية – بعلاقات وثيقة مع دول المعسكر الاشتراكي، التي يأتي في مقدمها الاتحاد السوفيتي والصين، كما كانت له علاقة مميزة بكوبا وزعيمها فيدل كاسترو (1929م – 2016م) الذي قال عن كابرال إنه : "واحد من أكثر القادة براعة ووضوحا في إفريقيا"، وكذلك أرتبط بصلة وطيدة مع زعيم الحزب الشيوعي الفيتنامي يغوين (1944م – 2019م)، وتأتي كل تلك العلاقات في سياق حشد الدعم السياسي لقضيته الوطنية. وكان كابرال مفكراً سياسياً بارزاً استطاع أن يسهم بأفكاره الثورية، والفلسفية المميزة في بناء أيديولوجية مناهضة للاستعمار والامبريالية، حيث كتب عنه تيتي كوفي قائلاً إنه : "رسم مساراً أيديولوجياً جديداً، موسعاً أعمال ماركس ولينين لتلائم الواقع الافريقي، وكان كابرال المنظر السياسي الأبرز بين القادة الناطقين بالبرتغالية حتى اغتياله في عام 1973م".(مارتينيز، alhamish.com.) على يد أعضاء من حزبه كانوا يتعاملون مع المستعمر البرتغالي.

ثانياً – دور الهوية في النضال :

يوضح كابرال رؤيته الفلسفية حول الهوية ودورها في النضال الوطني بالاعتماد على تجربته في مكافحة الاستعمار البرتغالي لبلده غينيا بيساو، وهي تجربة ثورية غنية بالمواقف والأحداث، استمد منها تفكيره الفلسفي العميق، فما يعرضه من آراء فلسفية حول الهوية يكرس العلاقة الوثيقة بين الهوية والفلسفة، فعلى سبيل المثال أرتبط مفهوم الهوية عند ارسطو (384-322 ق.م) بالمنطق، حيث يوجد في قانون الهوية عنده، إن الشيء لا يكون إلا نفسه، بمعنى أن طبيعة الشيء لا تتبدل، ولا تتغير. (النشار، 2002، ص 78-79)

في حين يذهب اندريه لالاند (1867م-1963م) في موسوعته الفلسفية إلى أن الهوية هي تماهى الكائن مع كائن آخر جزئياً أو كلياً، حيث يقول "إنها ميزة فرد أو كائن يمكن من هذا الوجه تشبيهه بفرد يقال عنه أنه متماه، أو هو ذاته في مختلف

فترات وجوده".(معلوف، 1999، ص 25) والهوية كما يرى أمين معلوف لا تعطى أو تمنح "مرة واحده وإلى الأبد، فهي تتشكل وتتحول على طول الوجود".(لالاند،2001، ص 607.)

ينحو جميل صليبا (1902م-1976م) في معجمه الفلسفي إلى التمييز بين أربعة أنواع للهوية، هي كالتالي :

أولاً – الهوية العددية : ويرى أنها تطلق على الشيء من جهة ما هو واحد، مثل قولنا : إن المعلم الأول هو أرسطو أو قولنا : إن المعلم الثاني هو الفارابي. **ثانياً** – الهوية الشخصية : التي يراد بها الشخص إذا ظل ذاتا واحدة، على الرغم من التغيرات التي قد تطرأ عليه في أوقات مختلفة. **ثالثاً** – الهوية النوعية أو الكيفية : التي تدل في رأيه على صفة موضوعيين فكريين مختلفين في الزمان والمكان، غير أنهما متشابهان في كيفية واحدة. **رابعاً** – الهوية المنطقية أو الرياضية : وهي التي تمثل العلاقة المنطقية بين شيئين متحدين كالهوية الرياضية، أو المساواة الجبرية، وكذلك تستخدم في التعريفات المنطقية مثل قولنا : الإنسان حيوان ناطق. (معلوف، ، 1999، ص 25.)

أما عند كابرال فإن الهوية تتمثل في إشكالية (الأنا والآخر) حيث تمثل الأنا عنده جماهير الشعب الخاضع في بلده غينيا بيساو، بينما يمثل الآخر عنده المستعمر البرتغالي، الذي يشكل التهديد المباشر لمجتمعه، أي يشكل التهديد المباشر للآنا، حيث تلجأ الأنا للعادات والتقاليد، أو بمعنى أوضح إلى الثقافة الشعبية لتمجيدها والاحتماء بها من تهديدات الآخر. وهكذا فالهوية عند كابرال مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنضال الوطني، فعلى سبيل المثال، عندما يتعرض مجتمع السكان الاصليين للهيمنة – السياسية والاقتصادية – ومحاولة المستعمر فرض ثقافته الاستعمارية بالقوة، أو بما يسمى الاستيعاب التدريجي لبعض أبناء المجتمع، فالناس يلجؤون إلى ثقافتهم الخاصة، التي تشكل لهم حصناً منيعاً للحفاظ على هويتهم، فالثقافة والتقاليد التي حاول المستعمر طمسها وقمعها، واضطهاد واذلال أشياعها، وممارسة الخداع ضدها من قبل مجموعة اجتماعية محدده تحالفت مع الاستعمار، لم يلحق بها أي ضرر بليغ، فلقد أحتمت الثقافة، والتقاليد بالقرى، والغابات، ولجأت إلى روح المناضلين الوطنيين الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل مقاومة الهيمنة الاستعمارية لتعود الثقافة مرةً أخرى أكثر قوة وازدهاراً، بسبب وقوفها أمام التحديات، ومن هنا فإن مسألة العودة إلى المصدر للحفاظ على الهوية عند كابرال، لا يمكن لها أن تنشأ لدى الشعب المناضل ضد المستعمر، فالشعب عنده مستودع الثقافة والمحافظ عليها لصنع تاريخه النضالي العريق.(صليبا، ج2،1972، ص 529-530.)

يعتقد اليكس ميكشيللي أن الجانب التاريخي يعد أقوى الجوانب، والعوامل في تحديد الهوية، فالجماعة عنده تتجذر لديها الهوية في تاريخها، حيث يبرز تاريخ الجماعة وإثاره في صيغ مكتوبة، ويتضح ذلك جلياً في تقاليدها وحكاياتها، كما أن الجانب التاريخي

كثيراً ما ينطوي على تلك الأحداث الفردية، والجماعية، وكذلك على صور الوطنيين من مناضلين وأبطال الجماعة التاريخيين. (ميكسيللي،1993، ص 23.) وكما أن للهوية علاقة بالتاريخ فلها أيضاً علاقة بالجغرافيا، فقد عرفت العلاقة بينهما في السابق بانها علاقة جوهرية، تطبع بصماتها الواضحة على عوامل الهوية، ومنها الملامح، واللون، والمزاج، واللغة، كما تحدث الهوية بدورها تغيرات في الجغرافيا، تتعلق بأنشطة الزراعة، والصناعة، والتجارة أي ما يسمى (بالاكولوجيا)، ذلك العلم الذي يتناول التأثير المتبادل ما بين الانسان والبيئة التي يعيش في كنفها، وهذا ما تناوله المفكر العربي ابن خلدون (1332م-1406م) في القرن الخامس عشر، عندما تحدث في (مقدمته) عن تأثير التضاريس والطقس في أمزجة البشر وألوانهم وملامحهم. (ابن خلدون، ج1، ص 230-287.) لهذا فإن هذه الصفات تعد عند ابن خلدون عوامل مهمة في توحيد جماعة من البشر وانتحالهم هوية تميزهم عن الجماعات البشرية الأخرى.

لا ينظر كابرال – في كونه مفكراً ثورياً مناضلاً – إلى مفهوم الهوية على أنه مفهوم ميتافيزيقي مثالي مجرد، بل ينظر إليه نظرة واقعية بحثة، مبنية على ارتباطه بحركة النضال الوطني، ودوره في مناهضة الهيمنة الأجنبية للمستعمر، لذلك نجد كابرال يناقش أسباب وجود أزمة في الهوية عند تلك المجموعات الاجتماعية التي تم استيعابها تدريجياً من قبل الاستعمار في منظومته الاجتماعية والثقافية، ومن الممكن أن نقول عنها أنه تم استلابها ثقافياً، فهي تعيش حياة مادية وروحية وفقاً للقيم الثقافية الاستعمارية الأجنبية حتى في سلوكياتها الاجتماعية، حيث أدت الحقبة الاستعمارية الطويلة إلى ظهور طبقة اجتماعية، تتكون من تجار، وموظفين يعملون في الدوائر الحكومية الاستعمارية، ويصفها كابرال بالبرجوازية الصغيرة، التي تكونت بفعل الهيمنة الاستعمارية على المجتمع وهي نتيجة حتمية لنظام الاستغلال الاستعماري، لكنها في حقيقة الأمر تقف في علاقاتها منتصف الطريق بين فئات الشعب العاملة في المدينة والريف، من جهة وبين ممثلي السلطة الاستعمارية الحاكمة، فعلى الرغم من روابطها الاقتصادية، والاجتماعية الوطيدة مع عامة فئات الشعب، إلا أنها تتطلع إلى نمط و أسلوب حياة معيشي متطابق مع نمط وأسلوب حياة المستعمر الأجنبي الحاكم، فهي تسعى إلى الاندماج في الفئة الأجنبية الحاكمة، مع إدراكها أن ذلك يؤثر على علاقاتها وروابطها الاجتماعية الأسرية منها والعرقية. فالبرجوازيون الصغار حسب كابرال هم سجناء للتناقض الثقافي والاجتماعي لحياتهم، إنهم لن يستطيعوا الهروب من كونهم طبقة مهمشة فقدت البوصلة.(كابرال، (11)، splmnorth.com.)

تتضح أهمية استراتيجية النضال ضد المستعمر عند كابرال في إعادة اكتشاف الهوية، فهو يعتقد أن تطور نضال الشعب وكفاحه ضد المستعمر يستلزم ازدياد العنف في المواجهات، كما أن شعور بالمرارة أو عقدة الإحباط يولد، وينمو بين أشياع الطبقة

البرجوازية الصغيرة، مما يجعلها شيئاً فشيئاً تعي وتدرك وضعها الهامشي في المجتمع، وحتى تتخلص من هذا الوضع السلبي وتكون أكثر ايجابية وفعالية، تلجأ للبحث عن هويتها من جديد، التي فقدها البرجوازيون المحليون باصطفافهم إلى جانب السلطة الاستعمارية الحاكمة، وحتى يتمكنوا من العودة إلى الجذور الوطنية، عليهم أن يصطفوا مع أبناء الشعب في وجه المستعمر، ومن هنا تنشأ مشكلة العودة إلى المصدر، والتي يجدها كابرال أكثر إلحاحاً كلما ازدادت عزلة البرجوازية المحلية الصغيرة، تماماً كما هو حال الأفارقه في الشتات الأفريقي. (كابرال، (11)، splmnorth.com.)

كان للعنصرية التي يعيشها الأفارقه السود في الدول الغربية الاستعمارية، الأثر الكبير في ظهور تلك النظريات أو الحركات مثل حركة الزنوجه، التي تفترض أن كل الأفارقه السود لهم هوية ثقافية واحدة، فبحسب رؤية كابرال أن حركة الزنوجه تم اقتراحها خارج إفريقيا السوداء، من قبل مفكرين مثل ايمي سيزار، وتم تبنيها في إفريقيا من قبل سياسيين مثل الرئيس السنغالي الاسبق ليبولد سنغور (1906م-2001م). (لومبا، 2007، ص 214.) كما يتضح لديه أن المطالبة المتكررة للسود الأمريكيين بالهوية الافريقية دليل يائس، على الحاجة للعودة إلى المصدر، ويعود السبب في ذلك إلى معاناة الأفارقه في الشتات من جراء العنصرية، كما أن هذا الموقف متأثر بوضوح باستقلال بعض الشعوب الافريقية في القارة الأم. لكن العودة إلى المصدر عند كابرال، لا تعني النضال ضد الهيمنة الأجنبية الاستعمارية والعنصرية كما أنها لا تعني بالضرورة العودة إلى التقاليد. أنها بكل وضوح تعني "إنكار البرجوازية الصغيرة للتفوق المدعي لثقافة القوة المهيمنة على ثقافة الشعب المسيطر عليه والتي يجب عليها أن تحدد هويتها معه". (كابرال، (11)، splmnorth.com.)

تمثل العودة إلى المصدر الرد الطبيعي على التناقض الذي فرضته قوة الاستعمار بين المجتمع الخاضع من جهة والقوة الاستعمارية من جهة أخرى، بين السكان الأصليين المستغلين والطبقة الاستغلالية الأجنبية، ذلك التناقض الذي يتطلب من كل فئات المجتمع الخاضع وطبقاته تحديد موقفها منه.

يعد الموقف الذي تقوم به شرائح المجتمع وفئاته المختلفة – في نظر كابرال – مقدمة لحركة النضال الوطني للكفاح ضد الهيمنة الاستعمارية الأجنبية، لذا فإن الأهمية التاريخية للعودة إلى المصدر ليست المشاركة الحقيقية في النضال الوطني فحسب، بل التماهي التام والمطلق مع آمال الشعب وطموحاته، الذي يرفض الثقافة والهيمنة الأجنبية الاستعمارية رفضاً مطلقاً.(كابرال، (11)، splmnorth.com.)، فالاستعمار يستلزم التبعية، مما يعني الخضوع لثقافته ومن ثم هويته.

يأخذ كابرال على الطبقة البرجوازية الصغيرة فقدانها هويتها الوطنية، وهو ما يوقعها في تناقض فرضه عليها المستعمر، وفي هذا السياق ينبه كابرال الطبقة البرجوازية المحلية إلى خطط واستراتيجيات المستعمر، ويدعوها إلى أن تصحو وتتفطن لمقاصده، وأن تأخذ زمام المبادرة في الانضمام لحركة النضال الوطني، كونه السبيل الوحيد الذي يمكنها من الاحتفاظ بهويتها الوطنية. غير أن كابرال يلاحظ أن هناك انقساماً في الطبقة البرجوازية المحلية الصغيرة تجاه حركة النضال الوطني، تبرز عنه أقلية من المنتمين لهذه الطبقة تشارك في بناء وقيادة حركة النضال، غير أن تماهي تلك الأقلية مع الشعب له شرط أساسي – في نظر كابرال – هو أن تحتفظ جماهير الشعب بهويتها، منفصلة ومختلفة عن الهوية الخاصة بالمستعمر التي يؤسس لها ويريد أن يفرضها. وفي هذا السياق يقول كابرال "إن هوية الفرد أو المجموعة المعينة من الناس هي عامل بيولوجي اجتماعي خارج إرادة ذلك الفرد أو المجموعة، ولكنها لا تكون ذات معنى إلا عندما يتم التعبير عنها فيما يتعلق بالأفراد الآخرين أو المجموعات الأخرى. تكمن الصفة الجدلية للهوية في حقيقة أن الفرد أو المجموعة هو فقط يشبه بعض الأفراد أو المجموعات وإذا كان مختلفا فهو أيضاً مختلف عن أفراد آخرين أو مجموعات أخرى". (كابرال، (11)، splmnorth.com.)

يرى كابرال أن العامل الاجتماعي المكتسب، والعامل البيولوجي الفطري المشكلين للهوية هما في تغير مُستمر، وعلى ذلك يمكن القول : إن الهوية لا تتسم بالثبات وفقاً للعوامل التي تحددها، فمن الناحية الاجتماعية والبيولوجية لا يوجد كائنان متشابهان تمام التشابه أو مختلفان كل الاختلاف، فمن الممكن جداً أن يجد المرء فيهما بعض الخصائص المتشابهة أو المختلفة.

يذهب كابرال عند تعريفه الهوية، إلى أن العامل الاجتماعي يكون أكثر حسماً من العامل البيولوجي، فإذا تم التسليم جدلاً أن العامل البيولوجي الذي يمثل الإرث الجيني الموروث هو المسؤول عن تطور الهوية لكونه الأساس المادي، فإن العامل الاجتماعي هو العنصر الذي يمنحها المحتوى والشكل، ويسمح بالمقارنة بين الأفراد والمجموعات. يمكن القول : إن "ما يُحدد انتماء الشخص إلى مجموعة ما هو إلا تأثير الآخرين بشكل أساسي، أي القريبين منه، كأهله ومواطنيه وأخوته في الدين يسعون إلى تملكه، وتأثير الذين في المواجهة والذين يعملون على إقصائه".(معلوف، ص 25)

يذهب كابرال وصولاً إلى تعريف دقيق و شامل للهوية، ذهب إلى أن العامل البيولوجي لا غنى عنه في مسألة تحديد الهوية، غير أنه وبحسب كابرال، لا ينطوي على أي تشابه اجتماعي، في حين أننا نجد أن الكائنين المتماثلين اجتماعياً لا بد أن تكون لهما هويات مُتماثلة بيولوجياً. وهكذا يمكن التمييز والتفريق بكل وضوح بين الهوية الأصلية، التي يكون العامل البيولوجي هو العنصر

الرئيس المحدد لها، وبين الهوية الفعلية، التي يكون العامل الرئيسي المحدد لها هو العنصر الاجتماعي. (كابرال، (11)، .(splmnorth.com

تمثل الهوية عند كابرال تعبيراً عن ثقافة المجتمع وعن الوضع الاقتصادي فيه، ويتضح ذلك من هوية الفرد والجماعة، حيث يلاحظ أن الوضع الاجتماعي هو عامل موضوعي، يكون نتيجة للجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، التي تميز المجتمع عن غيره من المجتمعات الأخرى. وإذا تم التسليم جدلاً بأن الجانب الاقتصادي له دور أساسي في تكوين مُجتمع من المجتمعات يمكن القول إن الهوية هي تعبير عن الواقع الاقتصادي للمجتمع. ويتم تحديده من مستوى القوى المنتجة من جهة – (العلاقة بين الإنسان والطبيعة) – ووسائل الانتاج – (العلاقات بين الأفراد وبين الطبقات داخل المجتمع) – وكذلك هو الآمر فيما يتعلق بالثقافة فإذا تم التسليم بأن الثقافة تعبير عن العلاقة بين الانسان والطبيعة، والطبقات المختلفة في المجتمع، وكذلك تمثل توليفة ديناميكية للوضع المادي والروحي للمجتمع، فيمكن أن نقول : إن الهوية الفردية والجماعية، تعبير عن الثقافة. لذلك يرى كابرال إن الاعتراف بهوية الفرد أو المجموعة أو إعلانها يكون لأجل وضع الفرد أو تلك المجموعة في اطار ثقافة محددة. (كابرال، (11)، .splmnorth.com) فإذا كانت ثقافة الزنجي أو الافريقي مازالت ملاحقة بثقافة الآخر (المستعمر)، فإن للهوية صلة بالثقافة وإن كانت "ليست مرادفة لها ... وغياب الثقافة لا يلغي وجود الهوية، لكن الحضور الثقافي يزيدها قوة وتجذراً [فالهوية] ... مجموعة من الملامح الثقافية الاساسية الثابتة التي تميز الجماعة عمن عداها".(عربيي،2006، ص 80.) لذلك فإن الثقافة والهوية بحسب جان بيير فاريني تشكلان البوصلة التي ترسم أفعال الجماعات وما تقبله ومالا تقبله من قيم ومعايير وسلوك، يقول : "إن الثقافة والتقاليد وعمليات تعيين الهوية، بمنحها قوائم السلوك والتمثل لاختياراتنا، تقوم بوظيفة البوصلة أو التوجيه ... ويجب أن تحدد التوجيه بصفته القدرة التي تملكها الثقافة لإقامة علاقات دالة بين عناصر الوسط : أشخاص ومؤسسات وأحداث ... وهذا شرط ضروري للفعل الذي تسيره الثقافة بصفتها البوصلة".(فاريني،2003، ص 11)

يذهب كابرال إلى أن المقاومة الثقافية للهيمنة الاستعمارية الأجنبية ليست موحدة في وطنه غينيا بيساو، لتعدد الاثنيات العرقية في المجتمع الافريقي عامة وغينيا بيساو خاصة. ويفسر ذلك بنجاح الجماعات العرقية في الحفاظ على هويتها، نجد أن أبرز الجماعات وأهمها مقاومة لهيمنة المستعمر، تلك التي شهدت أكثر المعارك عنفاً ودموية في مواجهاتها لقوى الاحتلال الأجنبي، وكذلك أيضاً الجماعات العرقية التي كانت على درجة أقل من التواصل والاحتكاك مع المستعمر بسبب بعدها الجغرافي عن مناطق سيطرته، يستخلص كابرال من تجربته النضالية نقطة جوهرية مهمة، تنص على أن المستعمر في سياق فرض وجوده ورؤيته أستغل

مشكلة الاثنيات العرقية في المجتمع الأفريقي الخاضع لسلطته الاستعمارية فخلق تناقضات غير قابلة للحل بأتباع سياسة التفرقة والانقسام، ويوضح ذلك قائلاً : "إن موقف القوة الاستعمارية تجاه الجماعات الاثنية يبرز تناقضاً غير قابل للحل: من ناحية يجب إن تقسم أو تبقي الانقسامات لتحكم، ولهذا السبب تفضل الانفصال إن لم يكن الصراع بين الجماعات الاثنية. من ناحية أخرى في محاولة للحفاظ على ديمومة هيمنتها تحتاج إلى تدمير البنية الاجتماعية، والثقافية، وضمنيا هوية هذه المجموعات".(أميلكار كابرال، المصدر نفسه).

ولذلك صاح المفكر الهندي أمارتيا صن بأن الهوية من الممكن "أن تقتل وبلا رحمه".(صن،2008، ص 18)

يطرح كابرال مشكلة الهوية عند سكان المدن الرئيسة وبعض المناطق الداخلية في المجتمع الخاضع لسلطة المستعمر، فيجدها أكثر تعقيداً بسبب التأثير الثقافي الكبير للسلطة الاستعمارية، ففي حين يحافظ أسفل الهرم الاجتماعي – متمثلاً في الطبقة العاملة المستمدة من مجموعات أثنية مختلفة – على هوياتهم، فإن أولئك الذين في متوسط الهرم الاجتماعي المتمثل في الطبقة البرجوازية الصغيرة، والذين تم غزوهم واستلابهم ثقافياً من قبل المستعمر يشاركون في معركة البحث عن الهوية.(كابرال، المصدر نفسه)

وهكذا فعندما تنطلق المبادرة من قبل الطبقة البورجوازية الصغيرة، التي أخذت قرار الانضمام إلى جماهير الشعب، يتم إطلاق حركة المطالبة بالاستقلال عن السلطة الاستعمارية، وهنا بحسب تصور كابرال فإن جماهير الشعب في مجتمع السكان الأصليين، لا تحتاج إلى تأكيد أو إعادة تأكيد هويتها التي لم تلتبس بالهوية الأجنبية للمستعمر. ومع ذلك، فإن إعادة التأكيد على تمييز الهوية الوطنية عن هوية المستعمر، حاجة لا تشعر بها إلا فئة قليلة من قبل البرجوازية الصغيرة. تجد نفسها مضطرة إلى أتخاد موقف في النضال الوطني، يجعلها مع جماهير الشعب ضد السلطة الأجنبية المستعمرة للمجتمع، بينما تبقى أقلية أخرى من الطبقة البرجوازية المحلية الصغيرة في صف المستعمر الأجنبي، وهي من ثم تفضل أن تؤكد هوية السلطة الأجنبية المهيمنة، أما الأغلبية الساحقة من طبقة البرجوازية الصغيرة، فتبقى بحسب كابرال أسيرة التقاعس والتردد ولا تستطيع أن تأخذ أي موقف إيجابي تجاه مجتمعها تؤكد من خلاله على هويتها الوطنية.(كابرال، المصدر نفسه)

يذهب كابرال إلى أن المستعمر ترك تأثيره الثقافي في تفكير وثقافة المنتمين للطبقة البرجوازية الصغيرة، حتى تلك الأقلية البسيطة التي تسعى لإعادة تأكيد هويتها الوطنية المميزة والمختلفة عن هوية المستعمر الأجنبي، والمنخرطة في حركة ما قبل الاستقلال، فهي تستخدم المفاهيم والمصطلحات الثقافية الأجنبية ذاتها، خصوصاً في الأدب والفن، اللذين يرفضهما كابرال، لأن مبدعيه المثقفين والأدباء يعبرون عنه بواسطة ثقافة أخرى، لا تعبر عن آمال المجتمع وطموحاته ومعاناته. إنها ثقافة تستخدم لغة وعبارة المستعمر.

غير أن هذا التأثر الثقافي بالأجنبي في رأي كابرال لا يفقد الأقلية البرجوازية دورها التاريخي في تطور حركة النضال الوطني لأنه يمكن لهذه الأقلية البرجوازية البسيطة أن تؤثر في الوقت نفسه على أولئك البرجوازيين والمثقفين الذين لا يزالون في صفوف المستعمر لتضمهم إلى صفوف الشعب. (لومبا، ص60-65)

يمكن تحديد الهوية أو إعادة تأكيدها في المجتمع الخاضع للهيمنة الاستعمارية الأجنبية عند كابرال، أن يكون تحديداً مؤقتاً أو نهائياً، وفقاً للتضحيات التي يطلبها النضال الوطني طيلة مراحله. فالنضال بحسب كابرال، هو تعبير سياسي عن الثقافة الوطنية، وهو من ثم دليل على الهوية، وكذلك تعبير عن الكرامة، ويفسر ذلك بقوله : إن "الجماهير هي التي توفر القوة الرئيسية التي تستخدم المقاومة السياسية أو المسلحة لتحدي وتدمير الهيمنة الأجنبية. ومثل هذه المقاومة المطولة والمتنوعة لا يمكن تحقيقها إلا مع الحفاظ على ثقافتها وهويتها، تظل الجماهير تحافظ على الشعور بالكرامة الفردية والجماعية، على الرغم من القلق والإهانات والوحشية التي يتعرضون لها في كثير من الأحيان".(كابرال، المصدر نفسه)

لا تؤدي إعادة التأكيد على الهوية الوطنية، من قبل الطبقة البرجوازية الصغيرة في مجتمع السكان الأصليين، إلى الشعور بالكرامة لتلك الطبقة وحدها بل يمتد لكل فرد في المجتمع الخاضع لسلطة المستعمر، وبدرجة خاصة المنتمين للطبقة البرجوازية الصغيرة، التي تعيش جنباً إلى جنب مع طرفي الصراع، وهما : الطبقة الأجنبية المسيطرة على المجتمع من ناحية، وأبناء المجتمع الخاضع من ناحية أخرى. (Cabral, A,1994, pp54-55) يعتقد كابرال أن على الطبقة البرجوازية المحلية الصغيرة، أن تحدث قطيعة نهائية مع المستعمر، و إلا سوف تبقى ضحية للإذلال اليومي المتكرر من قبله، فهي تدرك تماماً حجم المعاناة الكبيرة التي يتعرض لها الشعب من جراء الظلم والقهر، اللذين سببتهما قوى المستعمر الأجنبي.

يفسر كابرال سبب نشوء التناقض الظاهري للسيطرة الاستعمارية، إذ يتولد من داخل الطبقة البرجوازية الصغيرة، التي تنبع من المستعمر نفسه، كونه المسؤول عن وجودها في المجتمع المضطهد الواقع تحت هيمنته، حيث تبرز أولى الخطوات المهمة نحو تعبئة الشعب وتنظيمه من أجل النضال الوطني ضد المستعمر الأجنبي. وهكذا يعكس النضال، الإدراك الكامل للهوية الوطنية، الذي بدوره يؤدي إلى تعزيز الشعور بالكرامة لدى جميع فئات الشعب، وتقوية هذا الشعور الوطني عبر تطوير الوعي السياسي المستمد من ثقافة الشعب. (كابرال، المصدر نفسه)

يخلص كابرال من موقفه السابق إلى أن ازمة اكتشاف الهوية عند البرجوازية الصغيرة هي سبب قيام الثورة في المجتمع الخاضع للهيمنة الأجنبية، وهو بذلك يغض النظر تماماً عن دور فئة الفلاحين في الثورة، تلك الفئة التي تمثل القاعدة العريضة في المجتمع

الغيني، ولم تكن لديها علاقات وثيقة تربطها بالمستعمر البرتغالي، وهو ما يجعلها تبحث عن سبل تأكيد الهوية، كما أنه يغض النظر أيضاً عن الدور الذي تقوم به الطبقة العاملة، إن لم تكن تملك قاعدة شعبية عريضة في المجتمع الغيني، أي أنها تتشابه إلى حد بعيد مع الطبقة البرجوازية الصغيرة من هذه الناحية.

يتضح مما سبق أن كابرال لم يكن ماركسياً تقليدياً، يسير على خطى ماركس أو لينين دون أي إضافة فكرية أو فلسفية جديدة، بل كان يحمل وجهة نظر مختلفة، جعلته يتخطى أسر الايديولوجيا ويقدم للفكر الفلسفي المعاصر رؤية فكرية مهمة وعميقة.

ثالثا – الخاتمة :

بناءً على ما سبق يمكن الخلاصة إلى أن كابرال يرى أن التمسك بالهوية الوطنية والحرص على القيم الإنسانية الأخلاقية، التي تمثلها هو ما أدى إلى نشوب الصراعات والثورات والحروب مع المستعمر الأجنبي، من أجل الحفاظ على الهوية والدفاع عن الحرية، والكرامة في المجتمعات الخاضعة لسلطته الاستعمارية. فالهوية لها دور بارز ومهم في النضال الوطني لدى كابرال، الأمر الذي يتجلى في اكتشاف الهوية والعودة الى المصدر، عند اولئك الذين ضلوا الطريق وتحالفوا مع المستعمر الأجنبي، فدخلوا في منظومته الفكرية والثقافية والسياسية ضد مجتمعهم، مجتمع السكان الأصليين، فعندما تشعر الطبقة البرجوازية المحلية بالإذلال والتهميش في الواقع الذي فرضه الاستعمار، وكذلك تعي حجم الظلم الذي يتعرض له الشعب ينشأ حينها التناقض الظاهري للسيطرة الاستعمارية، إنه من داخل البرجوازية الصغيرة التي تنبع من الواقع الذي أحدثه المستعمر، من هنا تبرز أولى الخطوات نحو تعبئة الشعب وتنظيمه من أجل النضال ضد الهيمنة الاستعمارية، وهو ما يعكس مقدار الوعي والإدراك التام للهوية الوطنية.

ليست الهوية التي يتحدث عنها كابرال، فكرة مقولبة جامدة وجاهزة، إنما هي فكرة حيوية منفتحة يطورها مجتمعها الإنساني، ويتفاعل معها في وجوده بغية اللجوء إليها والاحتماء بها لكي تمنحه مزيداً من الثقة بالعادات، والتقاليد، والثقافة الوطنية، فالهوية المنفتحة التي لها قدرة على التفاعل، والاستيعاب للقيم الانسانية النبيلة من خلال تراثها الثقافي العميق، هي التي تستطيع تحقيق التوازن بينها وبين تقاليد وثقافات الهويات المختلفة، والمتميزة عنها. وهذا ما يذهب إليه بول كندي في كتابه (العولمة والهويات القومية) يقول : "الهويات لا تتشكل ولا تكتسب صلاحيتها وصحتها إلا من خلال سلسلة متواصلة من التفاعلات. فبما أن عملية اكتساب الهوية تنطوي دائماً على البناء، فإنها تظل تتكشف عن سمات مميزة إضافية. إنها في المقام الأول، عملية لا تعرف معنى الاكتمال قط، دائمة السيرورة".(كندي، 2009، ص 21)

the role of identity in the national struggle of Amilcar Cabral

Abstract: The paper deals with the role of identity in the national struggle of Amilcar Cabral (1924-1973), that he is a prominent political thinker who contributed to his distinctive revolutionary and philosophical ideas in building an anti-colonial and imperialist ideology, as well as drawing a new, expanded intellectual course of thought for Marx and Lenin's philosophy to suit African reality. Cabral presented his idea of the identity that he has in the problem of (the ego and the other) where the (ego) represents

المراجع:

1. ابن خلدون، (**دت ن**)،**المقدمة**، تحقيق عبد الواحد وافي، ط 3، الجزء الأول.

2. أمارتيا صن،(2008)، **الهوية والعنف**، ترجمة سحر توفيق، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد (352)، الكويت.

3. أمين معلوف، (1999)،**الهويات القاتلة – قراءات في الانتماء والعولمة**، ترجمة نبيل محسن، (ورد) للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.

4. اندريه لالاند،(2001) **موسوعة لالاند الفلسفية**، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت.

5. أنيا لومبا، (2007)،**في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية**، ترجمة مُحَمَّد عبد الغني غنوم، دار الحور للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذقية، الطبعة الاولى.

6. بول كندي، (2009)،**العولمة والهويات القومية، أزمة أم فرصة مواتية**، ترجمة فاضل حكتر، الهيئة العامة، السورية للكتاب، دمشق.

7. جان بيير فاريني،(2003)، **عولمة الثقافة**، ترجمة عبد الجليل الأزدي، دار المصرية اللبنانية، القاهرة.

8. جميل صليبا،(1972) **المعجم الفلسفي**، ج 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

9. علي سامي النشار،(2002) **المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

10. علي طاهر عربي،(2006)، **تأثير الاسلام واللغة العربية في اللغة السواحيلية**، مجلة الجامعي، العدد (12)، طرابلس، الجماهيرية،.

11. اليكس ميكشيللي، (1993)، **الهوية**، ترجمة علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق

12. ديمبا موسى ديمبل، **أميلكار كابرال مثقفا ثوريا**، ترجمة مجدي عبد الهادي الحوار المتمدن – موبايل ، alhewar.org.

13. أميلكار كابرال، **الهوية والكرامة في سياق النضال الوطني**، ترجمة ابكر آدم إسماعيل، دفاتر البان افريكانزم (11)، splmnorth.com.

14. كارلوس مارتينيز، **الإرث الثوري لأميلكار كابرال**، ترجمة ابكر آدم إسماعيل، صوت الهامش، alhamish.com.

15. Cabral, A(1994). National Liberation and Culture, in p. Williams and L.Chrisman (eds), Colonial discourse and Post colonial Theory; A Reader, New York; Columbia University Press, pp 54-55.